(٨٨) أبو العباس السياري[١]

ذكر الشيخ أبي العباس السياري رحمه الله رحمةً واسعة:

كان اسمه قاسم، وكان من أئمة زمانه، وعالمًا بعلوم الشرع، عارفًا بالحقائق والمعارف.

وأدركَ كثيرًا من المشايخ، وتأدّبَ في صحبتهم.

وهو أوّل من تكلَّمَ بكلام الصوفية[٢]، وكان فقيهًا محدّثًا.

صحبَ الشيخَ أبا بكر الواسطي رحمه الله، وانتمى إليه في علوم هذه الطائفة.

مات سنة ثنتين وأربعين وثلاث مئة.

وكان ابتداءُ حاله على ما نُقل أنَّه كان من بيتِ العلم والرئاسة، ولم يكنْ في مرو أحدٌ مثله في الجاه والقبول، وورث عن أبيه مالاً كثيرًا، فأنفقه في سبيل الله.

ووقعتْ بيده شعرتان من شُعور النبيِّ ﷺ، وحصلَ له ما حصلَ ببركة الشعرتَيْنِ حتى تاب.

---

(١) واسمه القاسم بن القاسم بن مهدي، وترجمته في:

طبقات الصوفية ٤٤٠، حلية الأولياء ١٠/ ٣٨٠، الرسالة القشيرية ١٠٩، الإكمال ٤/ ٥٠٩، الأنساب ٧/ ٢١٢، مناقب الأبرار ٧٩٨، المنتظم ٦/ ٣٧٤، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ٢١٤، اللباب ٢/ ١٦٢، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٠٠، طبقات الأولياء ٣٦٦، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠٩، نفحات الأنس ٢١٨، طبقات الشعراني ١/ ١١٩، الكواكب الدرية ٢/ ٥١، شذرات الذهب ٤/ ٢٢٩.

(٢) أول من تكلم بكلام الصوفية من أهل مرو. طبقات الصوفية ٤٤٠.

ووصل إلى أبي بكر الواسطي رحمه الله، وترقّى، وصار إمامَ عهده، وشيخًا للصوفية، وانتسبَ إليه طائفةٌ منهم يُسمّون السيارية.

ورياضُتُه ومجاهدته كانت خارجةً عن طرق الأمثال، حتى نُقل أنَّ رجلاً من أصحابه كان يومًا من الأيام يغمزُ برجله، فقال: لا تغمزْ رِجلاً لم تَخْطُ خطوةً في معصية الله تعالى قطُّ.

نقل أنه أتى حانوتَ بقالٍ ليشتري جوزًا، فقال البقال لغلامه: نقِّ له الأجود. قال الشيخ: لتكن وصيَّتُكَ هذا لجميعِ الناس؟ فقال البقال: بل هذا مخصوصٌ بك لأجل فضلِك. فترك الشيخ ورجع، وقال: إنّي لا أبَيعُ فضائلي بمقدار التفاوت بين الجوزات.

نقل عنه أنه قال: قال بعضُ الحكماء حين سُئل عن وجه معاشه: إنه من خزانة من يُضيّقُ المعاشَ على من يُريد بلا توسُّط علّةٍ، ويوسّعُ لمن يُريد أيضًا بلا علّة.

قال: ظلمةُ الطَّمعِ تمنعُ عن نور المشاهدة.

وقال: لا يستقيم الإيمان لأحدٍ إلاّ بعد أن يتحقَّقَ له الصبرُ على الذُّلِّ مثل الصبرِ على العزِّ.

قال: من حفظَ قلبَه مع الله بالصدق، فإنَّ الله تعالى يُجري الحكمةَ على لسانه.

وقال: الخطرةُ للأنبياء، والوسوسةُ للأولياء، والفكرُ للعوام، والعزمُ للعشاق.

أقول: قد ظهرَ من هذا الكلام أنَّ العزمَ على الشيءِ أقوى من الفكر له، وهو أقوى من الوسوسة، وهي من الخطرة، وذلك لأنَّ الخطرةَ ما يخطر بالبال على سبيل الندرة، ثم يزول سريعًا، فإذا قويَتْ تُسمّى وسوسةً، وهكذا إلى الآخرة، وعلم أنَّ الأنبياء عليهم السلام ما كانوا مَعصومين عن الخطرات، وإن كانوا مَعصومين عن الثلاثة الباقية، أما الأول فللدلالة على أنهم على البشر، وأمّا

الثاني فللدلالة على امتيازهم عن البشر بصفاتٍ مخصوصة بهم، والمُراد بالخطرة وأخواتها ما يتعلّقُ بالدنيا، لا مُطلق الخواطر بالبال. [والله أعلم].

قال: إذا نظرَ اللهُ تعالى عبدًا من العباد بالرضا أبعده في الساعةِ عن كلِّ مكروهٍ، وإن نظرَ ـ والعياذ بالله ـ بالسخط، يُظهرُ فيه حالةً يتوحَّشُ ويتنفَّرُ منه كلُّ من رآه ويهرب.

وقال: التوحيد أن لا يخطرَ بالبال ما دون الحقِّ جلَّ جلاله ـ يعني هو أن يغلبَ التوحيد بحيث ما يخطرُ، ينغطسُ في بحر التوحيد.

وقال: ما التذَّ عاقلٌ بمشاهدة الحقِّ قطُّ، لأن مشاهدةَ الحقِّ فناءٌ ليس فيه لذة.

أقول: في إيراد لفظ العاقل هنا فائدةٌ غريبة، وهي أن العارفَ ما دام عاقلاً فهو بمقام العقل ليس له التذاذٌ بمشاهدة الحقِّ كما قال، وأمّا إذا عبرَ عن مقام العقل، وغرقَ في لجَّة بحر الجنة فله التذاذاتٌ لا نهايةَ لها في المشاهدة، بلِ العاقلُ مقيَّدٌ بعقله، قلّما يصلُ إلى هذا المقام، رزقنا الله تعالى الوصولَ إليه بفضله وكرمه. [والله أعلم].

قيل له: ما مُرادُك؟ قال: ما يعطيني الله تعالى، لأنّه ما من شيءٍ يُعطى الفقير إلاّ ويصيب مَمرَّه ويصادف محلَّه.

أقول: ولأنَّ ما يعطي الله تعالى فهو مُرادٌ لله، وما هو مُرادٌ له تعالى فهو مرادي، إذ الفقير من لا يكون له مراده، إنّما هو مُرادُ الحقِّ جلّ جلاله. [والله أعلم].

سئل عن رياضة المُريد، قال: هي بالصبر على المأمورات، والاجتناب عن المناهي، والموافقة على صحبة الصالحين.

وقال: العطاء على قسمين: كرامة واستدراج.

أقول: أما الكرامة فللأنبياء والأولياء وسائر المؤمنين، والاستدراجُ للكفار،

قال الله تعالى في حقِّهم: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. [والله أعلم].

وقال: لو صحَّتِ الصلاةُ بغير القرآن لصحَّتْ بهذا البيت:

أتمنى على الزمانِ مُحالاً أن ترى مُقلتايَ طلعة حُرِّ

أقول: يشيرُ إلى قلّة الأحرار جدًّا، والحرية كما قال الإمامُ أبو القاسم[١] رحمه الله: هي أن لا يكونُ العبدُ تحت رقِّ المخلوقات، ولا يجري عليه سُلطانُ المكوّنات، وعلامةُ صحَّته أن يتساوى عنده الأخطار والأعراض[٢]، ولذا قيل[٣]: من كان في الدنيا حرًّا فهو في الآخرة حرٌّ، جعلنا الله منهم برحمته. [والله أعلم].

نقل أنّه لمّا حضرته الوفاةُ وصّى أصحابَه بأن يضعوا في فمه الشَّعرتَيْنِ اللتين هما من شُعور النبيِّ ﷺ، كانتا عنده، ففعلوا كما أمر.

ومات بمرو، ومرقدُه هناك ظاهرٌ يزورهُ الناس، ويلتمسون من الله ببركته حوائجَهم، واللهُ يقضيها، وذلك مُجرَّبٌ.

اللهم انظرْ إلينا ببركته نظرَ الرحمة، وعافنا ربَّنا من كلِّ بليةٍ ومحنةٍ ونقمةٍ، وصلّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآله أجمعين.

* * *

(١) الرسالة القشيرية ٣٢٨ (الحرية).

(٢) في الرسالة القشيرية: وعلامة صحته سقوطُ التمييز عن قلبه بين الأشياء، فيتساوى عنده أخطار الأعراض.

(٣) القول لأبي علي الدقاق. الرسالة القشيرية ٣٢٨.